القدس عاصمة للثقافة العربية

بين الخطاب السياسي وخطاب الحضارة

نظمي الجعبة*

لقد آن للقدس بعد رحلة طويلة أن تتبوء مركزا مرموقا بين العواصم العربية، وكنت أتمنى لو تم الأمر بذكرى الاحتفال ببداية الألفية الثالثة او حتى نهاية الألفية الثانية، اما وقد قضي الأمر فقد تقرر الاعتراف عربيا بالقدس كعاصمة، أي عاصمة لدولة فلسطين، فقد بقي الاعتراف بها وبالمفهوم العملي كعاصمة فعلية للثقافة العربية عام ٢٠٠٩. لم يكن الاعتراف السياسي الفلسطيني والعربي بالقدس عاصمة سوى شعار او موقف سياسي لم يجر وراءه برامج تعززه، ولم يزرع بالوجدان العربي بطريقة لا لبس فيها، وكأن الاعلان السياسي وحده كاف لتشكيل عاصمة. على أي حال شكل هذا الإعلان تحديا من الطراز الأول، حيث لا تقع القدس تحت أي سيادة عربية، وهي بشرقها وغربها ترزح تحت الاحتلال الإسرائيلي، وذلك بناء على القانون الدولي. وللإعلان هذا مغاز سياسية وثقافية لا حصر لها، أهمها بالتأكيد، حتى لو تأخر الأعلان كثيرا، اعادة الاعتبار للقدس، ووضعها عاى الأجندة الثقافية العربية.

لن يطول الانتظار حتى نكتشف محدودية القدرة العربية الرسمية، على أهميتها وضرورتها، على التصدي لمهمة ثقافية من الطراز الأول، وبهذا فعدا عن الاحتفالات الرسمية والتي تستمر ليوم بعضه او كله، فستعود القدس الى غمدها من جديد، لتستل في الخطابات البليغة وفي المناسبات الدينية، وسيتم ذلك بالتأكيد على أنغام فيروزية، لتعود من جديد الى غمدها باتظار العام القادم.

من جديد يبرز على السطح دور المثقف العربي، سواء المرتبط بنظامه الحاكم او المتحرر منه، في كونه اللاعب الأطول نفسا في الحفاظ على استمرارية القدس في الثقافة العربية، لأن عاصمة الثقافة العربية ستنتقل بعد أشهر معدودات الى مدينة أخرى، لكن مسببات اختيار القدس لن تنتهي بنهاية العام الجاري. كنت أتمنى على المؤسسات الثقافية وخاصة الاتحادات العربي للكتاب، والشعراء، والصحافيين، والفنانين التشكيليين، والمغنيين، والموسيقيين والسينمائيين، والنحاتين، والمسرحيين، بهيئاتهم الوطنية والقومية ان يكونوا الرافعة الأساسية للاحتفالية بتنظيم المهرجانات، وبدعم الانتاجات. فما هي مشكلة الاعلان عن: أحسن قصيدة حول القدس، وأحسن لوحة فنية حول القدس، وأحسن مسرحية حول القدس، وأحسن رواية حول القدس، وأحسن قصة قصيرة حول القدس، وأحسن أغنية حول القدس، وأحسن مقالة حول القدس، وأحسن بحث

* نظمي الجعبة: المدير المشارك لمركز رواق في البيرة واستاذ التاريخ في جامعة بيرزيت.

معماري حول القدس، وأحسن كتاب تاريخ حول القدس... وذلك بتنظيم من هذه الاتحادات على مستوى العالم العربي، ولا ضرر أيضا من تنظيمها على المستوى العالمي، اعترافا بعالمية القدس الى جانب عروبتها. وقد يقول قائل، وبحق، بأن الهيئية الوطنية الفلسطينية للاحتفالية احتكرت العمل، وفي هذا القول وجاهة من جهة وتهرب من مسؤوليات من جهة ثانية، فالنظر الى الاحتفالية كمناسبة قومية لها تبعاتها غير الاحتفالية، والهيئة الفلسطينة لم تمنع أحدا من القيام بحقه وواجبه، لكنها بالتأكيد قصرت، لأسباب وجيه وأخرى غير ذلك، في التنسيق ووضع البرامج التي تتجاوز حدود فلسطين، وقد تكون في حقيقة الأمر عاجزة عن القيام بكل هذا، وقد تكون القدس أصلا أكبر من ان تتولاها هيئة واحدة تقع تحت الاحتلال. على أي حال لم ينتهي وقت التدخل والعمل لتحقيق ما نتمنى.

فاذا كانت القدس ترزخ تحت احتلال استيطاين وتعيش ظروف في غاية الصعوبة والتعقيد، فلماذا اذا نحتفل بها عاصمة للثقافة العربية؟ سؤال وجيه تصعب الاجابة عليه بشكل مختصر. لكنني اصر على محاولة الجواب.

القدس مدينة لا تضاهى بثرواتها الثقافية، وتعتبر خزانا عالميا لمختلف الفترات والحقب التاريخية التي مرت على شرق البحر الأبيض المتوسط. لقد تم الاعتراف بالقدس، كمدينة عالمية، من قبل لائحة التراث العالمي (اليونسكو) عام ١٩٨٠. كما اعترف المؤمنون بعالميتها منذ القرن الأول للميلاد، وذلك منذ فجر المسيحية، التي أدخلت القدس الى العالمية، وتعززت هذه العالمية بشكل كبير بالإسلام في القرن السابع الميلادي. لقد أصبح أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية ينظرون بقدسية بالغة الى القدس، مما يؤهلها ليس فقط الى وضعها على قائمة التراث العالمي، بل اعتبارها أهم مدينة في العالم، وذلك من ناحية روحية على اقل تقدير.

لقد حولت هذه الأهمية القدس الى خزان لأفكار التوحيد والتواصل مع الله، فهي بوابة السماء. والقدس القديمة المسورة بالأسوار العثمانية، التي أعاد بنائها السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر الميلادي لا تصل مساحتها الى كيلومتر مربع، لكنها تحوي على آثار باقية جعلت أعدادا هائلة من سكان الكرة الأرضية يحولوها الى رموز لهم، وفيها تلاقت الطرز المعمارية والحضارات المختلفة بتعبيرات مختلفة.

تعود الكثير من المباني القائمة في البلدة القديمة في أساساتها الى العصر الروماني، خاصة القرن الميلادي الثاني، كما يعود الى نفس الفترة مخطط المدينة، خاصة المحاور الأساسية، وهذا ينطبق الى حد بعيد على النظم المائية التي سادت منذ القرن الأول قبل الميلاد الى القرن التاسع عشر. فقد نجد قناة ماء او بركة او بئر لتجميع المياه قد استخدمت على مدار ألفي عام، خلالها قامت السلالات الحاكمة المتعاقبة بصيانتها وتطويرها.

كما تعود الكثير من الكنائس القائمة اليوم كليا او جزئيا الى الفترة البيزنطية، وبعضها الآخر كان بالأصل معبدا وثنيا، لم يتخلى المؤمنون عنه بالرغم من تغيير ديانتهم، فتغيرت الديانة لكن استمر المكان المقدس، وتتالت الفترات التاريخية على المدينة مضيفة لها طرازها الخاص جنبا الى جنب من سبقها او فوق ما سبقها، لكن أحضرت كل مرحلة ما هو جديد ودمجته بما سبق معطية المدينة بعدا جديدا زادها تعددية وأثرى هويتها.

وتحتل كنيسة القيامة قلب المدينة، بالضبط كما تحتل قلوب المؤمنين من مسيحي العالم، وتقف الى جنبها عشرات الكنائس والأديـرة التي تعود الى كل الطوائف المسيحية وقومياتها المختلفة. ويشكل الحرم الشريف بتراثه الطويل وعمائره درة أعمال بني أمية، فالصخرة المشرفة تعتبر واحدة من أهم عمائر الكرة الأرضية وأجملها. لقد شكل الأمويون منطقة الحرم الشريف ولم يكن أمام السلالات الإسلامية المتعاقبة سوى صيانة هذا المجمع الثقافي الديني الضخم، وإضافة مباني تذكارية مختلفة وبأحجام متواضعة في الساحات المحيطة بقبة الصخرة والمسجد الأقصى.

ولم ينسى بنو أمية الأبعاد الأخرى للقدس، التي حصنوها، فبنو فيها مركزا إداريا ضخما (دار الإمارة)، وهو عبارة عن مجمع من القصور والمراكز الإدارية بملاصقة الحرم الشريف عند الزاوية الجنوبية الغربية، حيث كانت القدس مقصدا رئيسا لهم ومكان طالما زاروه وأداروا الدولة الأموية منه.

أضاف الصليبيون كما كبيرا من المنشآت الدينية والمدنية للقدس، بالرغم من تدميرهم لكثير من الصروح الحضارية، واليهم يعود الفضل في إدخال طراز الرومانيسك والقوطي المبكر الى القدس، ومازالت الكثير من مبانيهم ظاهرة للعيان وبعضها مازال مستعملا.

كما قدم صلاح الدين ومن جاء بعده من الأيوبيين الكثير من المباني للقدس، وذلك بالرغم من انشغالهم الكامل في مقارعة الفرنجة على أرض فلسطين، ومازلنا نشاهد أعمالهم في قلعة المدينة وأسوارها، وفي الخانقاة الصلاحية، وفي المدرسة الصلاحية، وفي كثير من مدارس المدينة وأسبلتها.

بلا شك ساهم المماليك في صبغ القدس بنكهتهم الخاصة، فالمباني المرتفعة المنتشرة في البلدة القديمة ذات الواجهات المتعددة الألوان والتي تحوى على الزخارف الكثيفة والرشاقة في التصميم وبرسائلها الروحية العالية. ولا يمكن اليوم التفكير بتراث القدس المعماري والثقافي بمعزل عن المماليك. لقد أنشأ المماليك العشرات من المباني العامة من مدارس وحمامات وأسواق وزوايا للصوفية وأربطة وترب انتشرت بشكل مكثف في المنطقة المحيطة بالحرم الشريف من الجهات الشمالية والغربية، وقد حافظت غالبية هذه المباني على نفسها معطية المدينة هوية معمارية غاية في الروعة والجمال.

جاء العثمانيون بمشاريع ضخمة، أهمها بالتأكيد إحاطة المدينة بسور ضخم ميزها عن الكثير من مدن العالم وحماها وأحاطها باهتمام بالغ. ولم يقصر العثمانيون بترميم الحرم الشريف بشكل عام وقبة الصخرة بشكل خاصة، وإعادة بناء وتأهيل قلعة المدينة، لكنهم أبدعوا في تعمير نظم المياه المعقدة. كما قدمت خاصكي سلطان، زوجة السلطان سليمان القانوني، مبرة اجتماعية ضخمة، تعتبر من أضخم مجمعات البلدة القديمة، والمعروفة باسم خاصكي سلطان او التكية.

منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، اشتدت حملات استكشاف القدس بدوافع أيديولوجية او دينية وفتحت الحفريات في أرجاء المدينة المختلفة منها ما هو داخل أسوارها ومنها ما هو خارجها، ولا نعرف مدينة في العالم اجتذبت هذا الكم الهائل من الباحثين في ماضيها كمدينة القدس. وكان من المأمول أن تنتج هذه الحفريات والدراسات معارف تفصيلية حول القدس، لكنها أنتجت أدبا هائلا مثقلا بالأيديولوجيات والأساطير الدينية، وكان على من يريد ان يبحث

في تاريخ القدس ان يتخلى عن النظرة العلمية الناقدة، وأن يحاول إثبات « تاريخية » الأساطير، وأن يكتب تاريخا ليس له علاقة بالتاريخ، وأن ينطق آثارا لا تتكلم. لقد أضحت القدس ميدانا للخيال الخصب، حيث طوعت كل معلومة بغض النظر عن تفاهتها، لتحكي قصة كاملة، مما جعل مراجعة تاريخ القدس بعقلية عملية ومنفتحة مهمة شبه مستحيلة، لأن ما كتب عن تاريخها هو نستلجيا خالصة، ولأن القدس أصبحت مصدرا للشرعية السياسية.

لكن النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد أحضر معه أيضا كما هائلا من العمائر الأوربية التي اجتاحت المدينة داخل سورها وخارجه، واضعة القدس بشكل خاص، وفلسطين بشكل عام في مركز الصراع الدولي الاستعماري. وشكلت هذه العمائر رموز وطنية ودينية لبناتها من الدول والكنائس الأوربية، لكنها أيضا أضفت المزيد من التنوع والجمال والعالمية للقدس. فلم تبقى أي دولة أوروبية دون أن تبنى لها صرحا في القدس يعكس اهتمامها ومصالحها وهويتها القومية.

مدينة صغيرة لطيفة تحتوي على مساجد وكنائس بكثافة لا تضاهى، معبد في الدنيا ومثوى في الآخرة، تمثل التوحيد والإيمان بالله، وكل ما فيها ينطق بذلك، هكذا القدس، لكنها أيضا مهدا للأساطير والحكايات الدينية والشعبية، التقي فيها الأنبياء وتوارثوا رسائلهم وتواصلوا مع الله ووعظوا بالبشرية واعدين إياهم بحياة أفضل وبذنوب مغفورة.

فالقدس اذا احدى الخزانات العربية التي تضم في جنباتها شطرا كبيرا من التاريخ العربي، وفيها أقدم عمارة عربية اسلامية (قبة الصخرة) مازالت واقفة بلا تغيير او تبديل، وفيها أقدم كنائس العالم الذي صممها عربي (كنيسة القيامة صممها المهندس زنوبيوس من تدمر). وبهذا فهي عاصمة متوجة بشكل دائم للثقافة العربية، سواء وقعت تحت الأسر ام لا.

لا يخفى على أحد بأن القدس قد مرت بظروف صعبة خلال العقود الأربعة الأخيرة. فعلى الصعيد الفلسطيني فقدت القدس مركزيتها بالنسبة لسكان المناطق المحتلة. وذلك نتيجة الممارسات الاسرائيلية المتمثلة بعزلها عبر نقاط التفتيش والحواجز والعوائق والجدران، او باغلاق المؤسسات المختلفة ومن ضمنها المؤسسات الثقافية، او بوضع سكان القدس الفلسطينيين (أكثر من ٢٧٠,٠٠٠ نسمة) في دائرة من الانشغال الكامل في أتون مشاكل حياتية يومية تؤثر على استمرار بقائهم في المدينة وحراسة الثقافة العربية فيها لأجيال قادمة: مثل هدم المنازل ومصادرة حق العيش في المدينة، ضرائب مبالغ فيها، جمع شمل العائلات، نقص في الغرف الصفية وسوء خدمات تربوية، بطالة، ملاحقات مخابرتية...الخ وصولا بمحاولة اجتثاثهم من علاقتهم العضوية بباقي سكان الضفة الغربية، وتحويلهم الى « شئ » بلا امتداد وبلا هوية وطنية. فهم ليسوا فلسطينيين بمفهوم أنهم لا يحملون جواز السفر الفلسطيني، وهم ليسوا اسرائيليين، بمعنى لا يحملون جواز السفر الإسرائيلي. وبالتالي ومن ناحية ثقافية يجب ان لا يكونوا أيا من الاثنين، أي عليهم أن يكونوا « اللاشئ ».

ساهم تأسيس السلطة الوطنية بدون وعي، كما يحلو لي الاعتقاد، في تعميق أزمة القدس، فنشوء رام الله كعاصمة الأمر الواقع (وليس بالتأكيد من ناحية قانونية) قد خلق تدريجيا حالة ثقافية في رام الله هي حالة العاصمة في دول العالم الثالث، حيث تتركز كل او لنقل أهم الفعاليات، ومن ضمنها بالتأكيد الثقافية. شكلت رام الله حالة ثقافية جميلة جدا، تعددت فيها النشاطات والمدراس الثقافية بحيث أصبحت، وبدون مبالغة، تزاحم عواصم الشرق في تعدد وتنوع العروض

الثقافية فيها. وجمالية ونجاح رام الله، كانت بتأكيد على حساب «عاصمية» القدس الثقافية للشعب الفلسطيني، بل أثرت على «عصمتها» السياسية أيضا، على اعتبار لا انفكاك بين المكونين في دول العالم الثالث.

تربعت القدس على عرش الثقافة الفلسطينية لعقود طويلة، ولنقل على أقل تقدير، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وذلك بالرغم من نشوء مدن جذب ثقافية واقتصادية ساحلية ومحيط متوسطية في فلسطين مثل ياقا وحيفا، حيث استطعتا بلورة ثقافة ليبرالية تليق بالمدن الساحلية عموما، واستقبلتا رموز الثقافة العربية من موسيقيين وأدباء وصناع أفلام اثناء فترة الانتداب البريطاني. الا ان القدس قد انتصرت في هذا السباق، لتملكها عناصر ثقافية تؤهلها ليس فقط لأن تكون عاصمة ثقافية فلسطينية بل حتى عربية وعالمية. فالقدس مرتبطة وجدانيا بأكثر من نصف سكان الكرة الأرضية، وبهذا لا يمكن لأي مدينة أن تنازعها. وان نجحت فذلك الى حين، الى حين تفرق الغيوم فوق سمائها.

جاءت الاستثمارات الفلسطينية بشكل عام في القدس بعد العام ١٩٩٥ باهتة الى حد بعيد، بالتأكيد ليس التزاما بالاتفاقايات الموقعة (اوسلو وما بعدها)، بل لأن القدس، ونتيجة ايضا لهذه الاتفاقيات، بقيت خاضعة لسلطة الأمر الواقع الاسرائيلية من جهة، ولتعود منظمة التحرير الفلسطينية ان تستثمر في الأرض التي تحت أقدامها فكانت رام الله ولم تكن القدس. وباستمرار بروز رام الله، استمر اضمحلال القدس.

وحتى لا تغيب القدس في أتون الصراع، وحتى لا تهمش القدس عبر صراع ديني، وحتى لا يتم صبغ القدس بلون واحد ومظهر واحد، وحتى تبقى قضية القدس حية في الضمير العربي، وحتى يتم وضع القدس على الأجندة الرسمية والشعبية العربية، كان لا بد من الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية، بل قد يكون من الضروري عدم انزالها عن قائمة الثقافة العربية.

من المفترض، والحال كذلك، ان احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية ستؤدي الى نتائج ملموسة في القدس أولا، وذلك بتأسيس لحالة ثقافية في المدينة يمكن عبرها استخدام قوة الثقافة في مواجهة ثقافة القوة السائدة في المدينة منذ العام ١٩٦٧. وعلى المستوى العربي، من المفترض أن تتوصل الى اعادة اجتذاب المثقفين العرب للعمل على المدينة، وذلك بعد سحب المدينة من أتون الصراعات الفلسطيية – الفلسطينية، والفلسطينية العربية الجارية.

ومن الممكن لخلق هذه الحالة العودة لما تمثله القدس، وبرأي فان القدس تمثل حالة نادرة من التعددية في كل المجالات، استعرضنا احداها أعلاه (التراث الثقافي)، واستخدام هذه التعددية على كافة المستويات في مواجهة تلوين المدينة بلون واحد، وهذه مقاومة ثقافية ليبرالية حضارية منفتحة، ترفض وضع القدس في أتون الصراعات الدينية، فالصراع على القدس هو صراع وطني من جهة وثقافي من جهة ثانية، ولا انفكاك بين الصراعين.